فن كتابة التراجم
نشأته وتطوره

أقوى الغرائز المسيطرة على حياة الإنسان هى غريزة حفظ الذات ، ويتلوها فى القوة والأهمية غريزة حب الإنتاج ، ولئن كانت الأولى متجهة إلى الرغبة فى المحافظة على كيان الفرد فإن الثانية ترمى إلى تخليد النوع ، وكما أن غريزة حفظ الذات تبدو فى صور متعددة وتصل إلى غايتها بطرق شتى وتلون بلونها الفكر والإحساس فكذلك غريزة حب الإنتاج والتناسل لها سبلها الخاصة وألوانها المختلفة وهى فى حدثان أمرها تظهر فى صورة حرص المرء على أن يكون له ذرية تتمثل فيها الحياة وتتجدد ويتحدى بها الفناء ويحقق عن طريقها أمله فى الخلود . ولكن بعد أن يبلغ الإنسان مستوى معيناً من الحضارة والترقى تتخذ غريزة حب الإنتاج صورة الرغبة فى حرص الإنسان على تخليد آثاره والاحتفاظ بتراثه واستبقاء رموز عقائده وذكريات ما دار فى خلده من أفكار وما اضطرب فى نفسه من مخاوف وآمال ، وفى خلال سير الزمن وخطوات التقدم أخذ الإنسان الهمجى يشعر بفرديته من حيث هى وحدة قائمة بذاتها بين وحدات القبيلة ثم تدرج بعد ذلك فى الوعى ، فبدأ يحس شخصيته وما تنطوى عليه من عجائب الأسرار وغرائب الأطوار ، واستطاع حين ذاك أن يكون أقدر على التعبير عن نفسه والإعراب عما خالجه ، بل أصبح إحساسه بنفسه شيئاً يحسب له حساب ويدخل فى كل تقدير .

ولقد كانت بعض الآثار التى تركها الإنسان من الصور والنقوش على

الأحجار صدى لأوهام عارضة وبدوات طارئة . ولكن تدرجه فى التقدم صحبه ارتقاء فى التعبير وشعور داخلى بالميل إلى رسم الحوادث الهامة وتخليد الآثار البارزة . ومر زمن قبل أن يعنى بنصيب الفرد فى تلك الآثار والسجلات . ولما كان لا يوجد فى القبيلة سوى شخص واحد محلق فوق حياة الجميع اليومية ومستأثر بطاعتهم فلا عجب أن يصبح هو مناط اهتمامهم ومحور أخبارهم المروية وحوادثهم المدونة . وبه يؤرخون كل ما يعرض لهم من الشئون وما يتداولهم من الأحوال . ولكنه كان مع ذلك ظلا للقوى المرهوبة المسيطرة على الوجود أكثر مما هو إنسان مثلهم ، فهم لا يتصورون ملامحه الفردية وخصائصه الذاتية لأنهم مسحورون بقدرته مأخوذون بجلاله . وأما غيره من أفراد القبيلة أو الرعية فقد حبتهم الطبيعة بالفردية ومستلزماتها فكل منهم يعرف السرور والحزن ويطوف بنفسه الأمل واليأس . ولكن بعد أن يكون قد مرت أجيال متطاولة قبل أن يصبح الفرد العادى مستأهلا لأن تدون أخباره ويحرص على آثاره .

وقد يستوقفنا ذلك الغرور الذى يبعث الإنسان على محاولته تخليد أعماله وأفكاره وعواطفه فى هذا الكون الغامض العظيم ، وهو يعلم بأيسر تأمل أنه ليس سوى قطرة فى لجه الطامى ، ولكن الإنسان إنسان ولا بد له أن يتلقى عوامل التدمير والفناء بهذا الغرور الضخم والأمل العريض .

أول ترجمة وأول مترجم :

وربما كان من العسير أن نعرف أول ترجمة حياة لم يغمرها النسيان ولا ريب أن فى أقدم كتب الصين والهند ومصر وغرب آسيا شذرات فى التراجم ، ولكنها أقرب إلى التاريخ منها إلى الترجمة . ولعل أقدمها وأبرزها قصة يوسف المعروفة فى الكتب المقدسة . على أنه يلاحظ بوجه عام أن كثيراً من السير

القديمة كانت تعمد إلى سرد تاريخ الحوادث أكثر مما تدور حول شخص معين . ومن قبيل ذلك ما كتبه زينوفون عن كيروس الفارسى . والفرق بين التاريخ والترجمة أن الترجمة تتناول الفرد رجلا كان أو امرأة بوصفه وحدة منقطعة النظير وتكشف لنا عنه ، وقد يكون المترجم له شاعراً أو سياسيًّا أو جنديًّا أو تاجراً . وفى هذه الحالة يلزم أن تظهر لنا سير التفاعل المحتوم بين فرديته ومهنته وكيف تأثر بالبيئة والعصر . وهذه كلها أشياء تقتضى دقة فى الفهم والإحساس . أما التاريخ فإنه يصف الحوادث والكوائن من وجهتها العامة .

والمعروف أن أول مترجم بارع للشخصيات هو « فلو طارخس » الذى نبغ فى النصف الثانى من القرن الأول الميلادى . وكتابه الخالد عن أعيان الرومان واليونان أثر جليل من آثار الأدب والتاريخ وشاهد بقدرته على وصف أطوار النفوس وقراءة القلوب ، وهو لا يكتفى بسرد الحوادث وإنما يحاول أن يراقب كيف يشكل السياسى أو الجندى تلك الحوادث ويطبعها بطابعه ، وأول ميزاته هى القدرة الفائقة على وصف كل شخص على حدة وصفاً بين الدقة واضح الحدود ، فأنت من كتابه فى متحف رائع حافل ببدائع الصور ، وكل صورة من صوره لها جوها الخاص ومعالمها الممتازة وقصتها المتفردة . وهو فى سوقه للحوادث لا يخضع للترتيب التاريخى ، فنحن لا ندرى هل الحادثة التى يقصها علينا قد حدثت بعد الحادثة التى رواها لنا من قبل أو سبقتها ، ولكننا برغم ذلك بعد أن نطالع صوره ونتدبر روايته نرى أنه قد استوفى جميع الحقائق المطلوبة ؛ وميلنا إلى الترتيب التاريخى التعاقبى نزعة حديثة ، ولعلنا نشعر بها أشد شعور فى العصر الحديث لأننا نحس إحساساً قويًّا أن الأفراد والشعوب فى حركة مستمرة وتطور دائم ، فنحن من ثم حريصون على أن نعرف كيف طفر الشباب الطامح من الطفل الغرير ، وكيف نجم الكهل المجرب من الشاب ؛ ونستخلص

من ذلك أن الحوادث تصقل الرجال ولكنها لا تصنعهم صنعاً ولا تخترعهم اختراعاً . وقصاراها أن تجلو ما اكتن فيهم من قوة وعزم ورأى وتدبير ، ونعلم من ذلك مصداق المثل اللاتينى القائل : «إن الإنسان لا يصبح شريراً بغتة» . وعنايتنا فى العصور الحديثة بأن نتتبع الخطوات ونقفو الأثر سببها كوننا نعلم أن وراء الأعمال البادية للعيان البواعث المستترة وهى فى غاية الدقة والتعقيد .

ومن التراجم البديعة التى كتبها القدماء ترجمة حياة أجريكولا الموجزة التى كتبها تاسيتوس المؤرخ الرومانى ومعاصر فلوطارخس . أما تراجم سيتونياس فهى خالية من روح النقد ويشك الآن فى تفاصيلها ، وهى فضلاً عن ذلك لا تنم على عبقرية ممتازة مثل تراجم فلوطارخس وكتابات تاسيتوس ولا على نظر صادق للأشخاص الذين يترجم لهم .

تطور كتابة التراجم :

ولقد كان الاتجاه فى تطور كتابة التراجم من الخارج إلى الداخل . لأن كتابة التراجم فى أوائل أمرها كانت مقصورة على وصف مظاهر الإنسان وأثره فى الحياة العملية الملموسة ، ولذا كان الملوك والقواد ومن إليهما من «كواكب» الحياة العملية هم موضوع كتابة التراجم . ولكن على مدى الأيام ظهر أن عوامل التقدم الحقيقية ليست وقفاً على هؤلاء ، وأصبح واضحاً أن بعض الأشخاص الذين لا يتألق نجمهم فى الحياة العملية تألقاً يخطف الأبصار لهم أهمية داخلية عميقة وتأثير بالغ وإن لم يرفعهم الحسب ولم يسم بهم المنصب . وليست براعة المترجم فى الاكتفاء بوصف المظاهر الخارجية وتعداد المآثر المتعارفة ، وإنما محك قدرته هو توفيقه فى كشف مجاهل الضمير ومغالق النفس وكيف يخرج من شوارد الأخبار ومتخلف الآثار شخصية نابضة بالحياة .

ويرى المتبصر فى تاريخ الأدب أن التطور فى كتابة التراجم كان متضافراً مع التطور فى كتابة القصص والروايات ، فرسم الأشخاص فى الروايات لم يكن فى أول الأمر من الوضوح بمكان ، وكانت أكثر القصص تحاك حول الأبطال والعواهل ويتلوهما الأشراف ، وذلك لأن الشعب كان يتوق إلى الوقوف على حياة هؤلاء ويتطلع إلى معرفة أخبارهم وما يتقلبون فيه من نعمة ، وما يهيمون به من لذة ، وما يستطير حولهم من إشاعات السوء وفاضح المعرات ، ولم تكن هذه الروايات صادقة فى تفسيرها ولا أمينة فى تصويرها ، لأن كتابها كانوا بمعزل عن حياة الطبقة العالية مثل سائر أفراد الشعب ، وإنما كانوا يستوحون أوهامهم فى ذلك التصوير الزائف ، ثم أخذت الرواية تنزل من عليائها وتتجه نحو الحياة الطبيعية وتعرض عن وصف « القوالب » واستشعر كتاب التراجم هذا التغيير فكبر عليهم أن يستطيع الروائيون أن يهبوا أشخاصهم حياة أصح وأوفر من حياة المترجم لهم ، ومن هذا يتبين لنا أننا إذا حاولنا أن ندرس تطور فن كتابة التراجم فعلينا أن نراقب التطور المماثل فى مختلف الفنون الأدبية وبخاصة فن كتابة القصة . ومما يدل على وجود تشابه فى تطور الفنون المختلفة بوجه عام أن نفس فن التصوير فى مبدأ أمره لم يكن يجيد رسم الوجوه وإبراز مميزاتها ، وكان يصور المسيح والعذراء تصويراً تقليدياً لا يقوم على فهم صادق لتشريح الأعضاء وتركيب الأجسام ، ثم أخذ بعد ذلك يتجه إلى الحياة الواقعية يدعم بها الفن ويستمد منها الوحى .

وقد غصت العصور الوسطى بكتابة تراجم حياة القديسين والأولياء ووصف كراماتهم وخوارقهم ، وجهل أهل تلك العصور أبسط قوانين العلم حملهم على تصديق تلك الخرافات ، ولم يستطع كتاب تلك التراجم أن يضيفوا شيئاً إلى فن كتابة التراجم لأن كتابة الترجمة على أساس الاعتقاد بتلك الخوارق

والمعجزات تجردها من القيمة التاريخية وتحرمها من الحياة ، والمغالاة فى التصديق بالسحر والخوارق تجعلنا نعيش فى عالم معكوس ودنيا مقنوبة مختلطة الحقائق بالأوهام ، ورغبة هؤلاء المترجمين فى إثبات قضاياهم والتسامى بأبطالهم دعتهم إلى التسليم بخرافات جمة ، وخوارق مدهشة ، وتجافت بهم عن أمانة التصوير وصدق التحرى .

وقد كان لكتابة الاعترافات تأثير غير منكور ولا خفى فى فن كتابة التراجم وذلك لأننا عندما نقرأ تلك الاعترافات التى يفضى فيها إلينا كتابها بأسرار نفوسهم ودفائن عقولهم نصبح ننتظر من كتاب التراجم مثل هذا التحليل الدقيق والكشف النفسى الصادق ، وكما أن تقدم فن القصة أرغم كتاب التراجم على أن يقدموا لنا شخصيات حية لامومياات أو بقايا متحجرة فكذلك كتابة الاعترافات اضطرتهم إلى الغوص وراء الدوافع والتعمق فى فهم الطبيعة الإنسانية . ولا نزاع فى أن الإنسان يعرف نفسه أكثر مما يعرف غيره ، ولكن هذا لا يدل فى جميع الحالات على أنه يستطيع أن يجيد الكتابة عن نفسه ويحسن تصويرها ، وقد كان چونسون من كتاب الإنجليز المعدودين ولو أنه كتب تاريخ حياته بنفسه لما استطاع أن يفوق صاحبه بوزويل .

وليست أهمية الترجمة موقوفة على أهمية المترجم له لأن الكاتب القدير يستطيع أن يجعلنا شديدى الطلعة كثيرى الاهتمام بأى كائن إذا استطاع أن يلمس قلبه ويهتدى إلى دخيلته ويصوره تصويراً صادقاً أميناً ، وربما كان تناول حياة المغمورين العاديين أدل على البراعة والحذق من كتابة حياة العظماء البارزين .

الأسلوبُ العلمى :

والأسلوب العلمى الذى ساد فى أواخر القرن التاسع عشر كان له أثره فى كتابة التراجم وفن القصة ، لأنه علم الناس كيف يصفون غيرهم من بنى الإنسان وصفاً منزهاً عن التعصب مجرداً من الهوى مثلما يدرس العلماء طبائع الحيوانات وخواص العناصر الكيميائية ، على أن التطوح فى الأخذ بالأسلوب العلمى لا يلبث أن يصطدم بعقبة لا يمكن تذليلها وهى الروح الإنسانية العصية على العلم وطرائقه وهى جوهر موضوع المترجم ، وقد يكون فى مصلحة الترجمة أن نعتبرها فرعاً من علم النفس ، لأنه فى هذه الحالة يكون الإغراق فى المدح مضللا مثل الإغراق فى القدح وتكون عدم الدقة فى العرض مشابهة للتقصير فى استيفاء الحقائق وتشويهها ، والأمانة العلمية من أقوى الوسائل إلى الإجادة فى كتابة التراجم . وأخص ما يلزم توافره فى كتابة التراجم هو الشغف بالاستطلاع وصحة الملاحظة النفسية المشوبة بروح الفكاهة وصدق العطف وقوة التأليف والتركيب وبراعة الاختيار والقدرة على التجرد ، لأن إدخال المترجم مقاييسه الأدبية وميوله الشخصية وعقائده الفكرية فى الترجمة مفسدة لها . وهى تتطلب الدقة على شريطة ألا تنحدر إلى التكلف والحذلقة والسماجة ودون أن تهوى إلى الإفراط فى المدح ، وهى تخدم الفكر والأخلاق بطريق غير مباشر لأنها توسع العطف الإنسانى وتنسينا الأنانية البغيضة .

كثرة التراجم :

ومن الظواهر التى يعنى برصدها وتعليلها مؤرخو الآداب استفاضة كتابة التراجم فى السنوات الأخيرة بصورة تسترعى النظر وكثرة الإقبال عليها والنشاط إلى قراءتها ، ويمكن رد ذلك إلى عوامل ثلاثة : العامل الأول شخصى وأقصد

به ظهور طائفة من الكتاب الموهوبين لهم استعداد خاص وتفوق ممتاز فى كتابة التراجم مثل استريتشى وموروا ولدفج وزفايج وبيلوك وقد شجعهم على متابعة خطتهم كثرة إقبال القراء على كتبهم وتقدير المثقفين لها ، ومهما نبالغ فى تأثير العوامل الاجتماعية فلا ينبغى أن نهمل هذا العامل الشخصى وأثره البعيد . والعامل الثانى هو روح الشك والحيرة الغالبة على هذا العصر لأنه من الملحوظ أن عصور اليقين والإيمان ليست ملائمة للإجادة فى فن كتابة التراجم ، والإفراط فى الاهتمام بالحياة بعد الموت صارف عن الاهتمام بالحياة الحاضرة ، ولقد قال القس ستانلى : «ليس للأتقياء عبقرية فى كتابة التراجم» ويفتر الاهتمام بكتابة التراجم أو يشتد وفقاً للاهتمام بالشخصية الإنسانية ؛ وفى عصور اليقين تتجه عناية الإنسان إلى ما يسميه الحقائق الأبدية وتقل عنايته بالحقائق الدنيوية ، والتراجم التى تظهر فى أمثال تلك العصور تصطبغ بالصبغة التعليمية ويشوبها الولوع بالوعظ والتبشير . أما فى عصور الشك فإن جمهور القراء يكلف بالسلوك الإنسانى فتصبح الترجمة من أجل ذلك استقرائية واقعية نزيهة . وربما كان العامل الثالث فى طلب الاستزادة من كتابة التراجم زهد فريق من القراء فى قراءة القصة واعتقادهم بأن العلاقة بين الفن والحياة فى التراجم أوضح وأقوى مما فى الروايات العصرية . وقد كان كتاب التراجم يعرضون الحقائق مرتبة ويتركونها تتكلم ، أما الآن فإن الطريقة الحديثة تعمل على ملء الفراغ بالفروض المتخيلة ، وسد الفجوات ، وتنسيق الحقائق تنسيقاً يلائم تصوير الشخصية ، فهى تجمع بين طريقة المؤرخ وأسلوب الروائى ، وفى الأدب المصرى الحديث نزعة مبشرة إلى كتابة التراجم واستحضار طيوف الشخصيات البارزة فى التاريخ الإسلامى وهى نزعة محمودة البواكير مرجوة النماء وجديرة بأن تعتورها الأقلام بالتحليل وتشجيعها بالاستزادة .